العرب
الجمعة 2021/08/06
السنة 44 العدد 12140

«الفوضوية» تهمة على مقاس الغرب يوجهها الغنوشي لسعيّد

حكيم مرزوقي
كاتب تونسي

زعيم حركة النهضة راشد الغنوشي ومؤيدوه أقلعوا عن استخدام المفردات التقليدية في قاموس المظلومية السياسية واستبدلوها بـ"فزاعات شعاراتية" يفهمها الغرب جيدا ويحسب لها ألف حساب.

لم تعد شعارات الأمس من قبيل "الاضطهاد" و"الإقصاء" و"قمع الحريات الدينية" التي كانت تستخدمها جماعة الغنوشي في المنابر الغربية أثناء حكمي الحبيب بورقيبة وزين العابدين بن علي قادرة على الإيقاء بالغرض، وإقناع الديمقراطيات الأوروبية بـ"عدالة قضيتهم" بل صار من الحكمة لدى هؤلاء المتلونين، البحث عن المفردة المناسبة في الوقت المناسب، ومخاطبة الغرب بلغته المستجدة ومزاجه الراهن.

وليس هناك أنسب الآن من اتهام خصمك السياسي بالفوضوية، والسعي لتقويض بنيان الدولة في وقت يحتاج فيه الجميع إلى سلطة تحتكر العنف لصالح شرعية الدولة، ويحد من الاحتجاجات العشوائية التي لا تخدم إلا الشعبوية، خصوصا تحت سطوة جائحة كورونا وتبعاتها التي أصابت العالم بمس من الجنون.. وتونس واحدة من البلدان التي تتهددها فوضى عارمة لا تُحمد عقباها.

> «إذا كان هذا انقلابا فنحن مع الانقلاب» لافتة رفعها شاب تونسي مؤيد لقرارات الرئيس قيس سعيّد، فما يطلق عليه الإسلاميون «فوضوية» هو ببساطة شديدة تصحيح لمسار يجب أن يصحح

الحقيقة أنّ كل شيء في هذا البلد المحتقن قابل للاشتعال.. إنها كومة قش تنتظر عود ثقاب.. وقيس سعيّد في نظر حركة النهضة، هو ذاك الرجل الذي يمسك بعلبة كبريت ويلوّح بها دائما أمام خصومه السياسيين ليفعل بتونس ما فعله نيرون بروما وفق الأسطورة السائدة.

قيس سعيّد بقامته الطويلة ذات الظل العالي وصوته الجهوري الفصيح الذي يليق بقارئ بيانات عسكرية، وصاحب النظرات الشاخصة نحو الأفق المجهول، هو ذاك الذي "قد يفتح باب الفوضى المدمرة على مصراعيه ويصيب ديمقراطيتنا الناشئة في مقتل"، وفق زعم حركة النهضة.. لذلك وجب إيقافه عند حدّه.. تقول تقارير وتشكّيات جماعة الغنوشي للغرب الأوروبي والأميركي.

لم يستخدم الإخوان في تونس هذه المرة في بياناتهم وتصريحاتهم للإعلام الأجنبي أي مفردة تتعلق بـ"المس من هوية البلاد الإسلامية" ولا "قمع الممارسات العبادية" وغيرها من الكليشيهات المستخدمة في دفاترهم العتيقة بل ركزوا على التحذير من وقوع البلاد في نوع من "الأناركية" (الفوضوية) وفق المصطلح الغربي الذي يعني كلمة "بلا حكم" في اليونانية القديمة، ثم صار تعبيرا عن تيار فكري على مدار القرون الثلاثة الماضية صاغه بعض المفكرين، وعلى رأسهم الإنجليزي جودوين، والروسي كروبوتكين، والفرنسي براودهون، وغيرهم. وهو ما يمكن عدّه ثورة على المفاهيم التقليدية للمسيرة الفكرية والسياسية للإنسانية، من بينها الدين الذي يعتبره الفوضويون وسيلة لقمع الفرد وتدجينه، بالإضافة إلى شيطنة الدولة ورفض سطوتها الضريبية التي تسعى للمزيد من إفقار المواطن.

هذا الاتهام تكرّر مرارا على لسان الغنوشي وغيره من قيادات حركة النهضة كتلك التدوينة التي كتبها صهره رفيق عبدالسلام يوم إقدام متظاهرين على إحراق مقرات حزب حركة النهضة يوم الخامس والعشرين من يوليو "قيس سعيّد يسعى لتنصيب نفسه الحاكم المطلق عن طريق تنسيقيات شعبوية فوضوية متحالفة مع البلطجية". ودعا رئيس الجمهورية إلى ضرورة أن يختار بين "الفوضى أو الدولة" وأن "لا يختفي وراء مجلس الأمن القومي لأنه أصبح جزءا من المشكلة وليس جزءا من الحل".

التوجسات من شخص قيس سعيّد و"فوضويته" ليست غريبة على حركة النهضة وقياديها منذ انتخابه رئيسا يناصره جمهور من الشباب والفقراء والمعطلين والهامشيين دون أن يقف خلفه حزب سياسي أو تموّل حملته طبقة اقتصادية أو تدعمه جهة أجنبية. نعم، كل ما يوحي به شخص هذا الرجل وسلوكه السياسي وتصريحاته هو أنه من ذاك النوع النادر والمحبّب لدى فئة الفوضويين الذين لا يمكن بأي حال من الأحوال، أن نضعهم في سلّة واحدة، فمنهم المثقف المبدع والفنان المتألق والوطني الغيور.. ومنهم غير ذلك.. فليكن.. ولعل رأي القيادي في حزب الغنوشي محمد بن سالم، لم يجانب الصواب حين قال في لقاء إذاعي قبيل إعلان فوز قيس سعيّد بالرئاسة يوم 18 سبتمبر 2019، إن "قيس سعيد لا يمكن أن يكون العصفور النادر لكن في الهم عندك ما تختار"، مشيرا بقوله "هذا الرجل يساري المنشأ وقد انشق رفقة أصدقائه عن حزب الوطنيين الديمقراطيين اليساري، وأصبح أكثر تطرّفا منه"، وتابع بن سالم في لقائه الإذاعي "أنا حينما أقول سأدعم قيس سعيّد فقط لأنه مؤمن بالثورة لكنه متطرف في العلمانية ولديه أفكار فوضوية وله علاقات بأناس فوضويين".

من ضربك على يدك يا سيد راشد الغنوشي - أنت وجماعتك - حتى تساند في البداية، انتخاب رجل تعلم سلفا أنه "فوضوي" ثم تعود لتذكّر العالم وتحذره من "فوضويته".. أليس هذا ضربا من التلوّن الحربائي واستعدادا للتضحية بكل شيء مقابل البقاء في السلطة؟

قيس سعيد لم يبدّل تبديلا، وظل يتجول في شارع بورقيبة بقامته الفارعة مثل نخلة وهو يحيّي أنصاره ومؤيديه من مختلف الفئات العمرية والشرائح الاجتماعية، لكن راشد الغنوشي اختفى من المشهد وتلقى الانتكاسة تلو الأخرى حتى أن الكثير من جماعته ومقربيه نصحوه بالخروج من هذا الباب الصغير قبل أن تنسدّ أمامه كل المنافذ.

يريد زعيم حركة النهضة التي لم يعد زعيمها الفعلي أن يتذاكى على الغرب الأوروبي والأميركي في نظر الكثير من المحللين عبر تحذيراته المتكررة في وسائل إعلام أجنبية من سلوكيات قيس سعيّد التي قد تبدو في ظاهرها تحظى بالتأييد الجماهيري، لكنها تخفي عواقب وخيمة في نظره، تتمثل في تشجيع الناس على شق عصا الطاعة ضد مؤسسات الدولة، مما ينذر بعصيان مدني مزمن، ويؤسس لسابقة لا تحمد عقباها في المنظور القريب والبعيد.

يجنّد أنصار هذا الزعم كل كتب التاريخ ونظرياته لإثبات صحة هذا الادعاء والقول بأن "ألف يوم بحاكم ظالم، أفضل بكثير من يوم واحد دون حاكم" كما قال التونسي عبدالرحمن بن خلدون، لكن هذه المقاربة لن تنطلي على من خبر ألاعيب قادة الإسلام السياسي ومراوغاتهم المعهودة المبنية على ازدواجية الخطاب.

الذين سينصتون إلى "نصائح الغنوشي" من الأوروبيين هم صنفان: إما مغفلون يأخذون بنصيحة الذئب تحت ذرائع استباقية قد تضمن لهم بعض الأمن والاستقرار، وإمّا من ذوي العقلية الاستعمارية بالغة الاستعلاء والاستهتار بإرادة الشعوب في العيش بكرامة وحرية، وذلك من مبدأ أن الإسلاميين وحلفاءهم من الفاسدين سيحافظون على مصالحنا مقابل أن يغنموا من ثروات شعوبهم، ولا عزاء للمتخلفين.

هذا الأمر يشبه ويقترن بالمقايضة التي أطلقها الغنوشي على شكل تحذير موجه للحكومات الأوروبية، إما أن تردعوا قيس سعيد عن حركته مع الجماهير الغاضبة وتعيدونا إلى البرلمان ورئاسة الحكومة أو نطلق حشود المهاجرين ونسهّل عبورهم إلى أراضيكم على متن المراكب المتهالكة.. وهو أمر غاية في الصفاقة والاستهتار بأرواح جماهير الشبان المعطلين عن العمل في بلدهم أي تحاربكم بضحايانا في التنمية والتشغيل الذين سنضحي بهم مرة ثانية ونشجعهم على امتطاء مراكب الموت.

وهذا الابتزاز السياسي يذكّر بتهديدات الزعيم الليبي معمر القذافي قبل أن تجهز عليه ثورة السابع عشر من فبراير.

لنتوقف عند "الاتهام" الذي وصف به الإسلاميون في تونس خصمهم قيس سعيد، ونقيّمه بمعزل عن التسمية التي من شأنها أن تدعو إلى النفور والاشمئزاز: ألم يعرّف منظر الفوضوية الروسي كروبوتكين فكرته على أنها الخطوة التالية لمستقبل البشرية في ظل المأزق السياسي والاقتصادي الذي تعيشه الشعوب؟

إنها مسألة تسميات لا أكثر ولا أقل.. وما يسميه الإسلاميون بالفوضوية هو ببساطة تصحيح لمسار يجب أن يصحح، حتى أن ما لفت انتباه متابعي الأخبار في تونس هو مشهد طريف لشاب مؤيد لقيس سعيد، رفع يافطة كتب عليها "إذا كان هذا انقلابا، فنحن مع الانقلاب".

رجعيون بثياب تقدمية

فاروق يوسف
كاتب عراقي

كان تحالف الشيوعيين العراقيين مع تيار سياسي ديني متخلف وطائفي سبق له وأن ارتكب جرائم ضد الإنسانية يقوده رجل دين اسمه مقتدى الصدر صادما بالنسبة إلى الكثيرين ممن لم يتعرفوا من قبل على تفاصيل الفشل السياسي الشيوعي في العراق.

تسعون سنة من الفشل من غير مراجعة أو مساءلة أو نقد ذاتي.

"ليس كافيا أن تكون شيوعيا لكي تكون تقدميا" عبارة هي خلاصة تلك التسعين سنة من النضال السلبي. ومن أجل أن نتحاشى الخوض في تفاصيل يمكن أن تملأ الآلاف من الصفحات بالألم المستفهم والحيرة المعذبة، يكفي القول إن تواطؤ الحزب الشيوعي العراقي مع أعدائه من قوى اليمين والرجعية قد أدى إلى وقوع مجازر عديدة، راح ضحيتها الآلاف من الشيوعيين الذين لم يكن لديهم ذنب سوى أنهم وثقوا بنزاهة قيادتهم التي كانت تمارس استبدادا مغلقا على سلوك ذرائعي لا يمتّ إلى مبادئ الشيوعية بصلة.

أحيانا كانت القيادة الشيوعية تضحي بقواعدها وتنجو بنفسها ومَن هو مقرّب منها كما حدث عام 1979 وأحيانا أخرى كانت لا تجد الوقت للهرب فتُذبح كما حدث عام 1963.

وبالرغم من كل الهزائم التي مني بها الحزب الشيوعي العراقي وبالرغم من أن الأحياء من المنتسبين إليه قد قضوا الجزء الأكبر من حياتهم خارج العراق، فإن كل ذلك لم يدفع القيادات إلى النظر إلى دورها التوعوي بقدر من النزاهة والتعفف والمبدئية بحيث يكون الشيوعي نموذجا يُحتذى به على مستوى تمسكه بالدولة المدنية والمجتمع المتنور والقيم الحضارية التي تتيح للمواطن العراقي فرصة الانفتاح على العالم وانفتاح العالم عليه.

كان أسوأ ما فعلوه بعد 2003 أنهم انضموا إلى موكب الحشود الرجعية التي رحبت بالمحتل. كان ذلك حدثا كارثيا استسلم له الشيوعيون بألفة ويقين كما لو أن شيوعيي العالم لم يكونوا عبر السنوات في مقدمة الصفوف المقاومة للاحتلال. لقد وضعوا التاريخ على الرف وصاروا ينظرون بإعجاب إلى زعيم حزبهم وهو يلتقط الصور مع ممثلي سلطة الاحتلال. كان أعظم إنجاز لهم في تلك المرحلة أن يُعين واحد منهم وزيرا للثقافة. فالثقافة مهنتهم كما أوهموا الكثيرين بذلك.

في ذلك الوقت كانت مكاتبهم تُحرق بمَن فيها من قبل أنصار مقتدى الصدر. يومها توهم الصدر أنهم تقدميون ولأن كل تقدمي هو كافر من وجهة نظره كما أن هناك فتوى "الشيوعية كفر وإلحاد" فقد أمر أتباعه بتصفيتهم ولم يكن يخطر في باله أنهم سيركعون في حضرته بعد سنوات معلنين عن إيمانهم بخطه "الثوري".

وهكذا تحالف الشيوعيون العراقيون مع قتلتهم. خليط من خيانة التاريخ والتنكر للمبادئ والصلافة في مواجهة الحقيقة التي ابتذلوها تحت شعارات التكتيك والحتمية التاريخية التي وضعوها على الميزان في المزاد.

مَن تابع مسيرة الخيبة والتخاذل والنفعية التي مشى فيها الحزب الشيوعي لا بد أن يفهم السبب الذي يدعو بعض قوى اليسار التونسي إلى الدفاع عن حركة النهضة والوقوف ضد الإجراءات القانونية التي اتخذها الرئيس التونسي قيس سعيد من أجل إيقاف الانهيار الاقتصادي الذي سببه فساد الطبقة السياسية من الأحزاب الحاكمة وفي مقدمتها حركة النهضة.

> مَن تابع مسيرة الخيبة التي مشى فيها الحزب الشيوعي العراقي يفهم السبب الذي يدعو بعض قوى اليسار التونسي إلى الدفاع عن حركة النهضة والوقوف ضد إجراءات الرئيس التونسي قيس سعيد

من خلال ردود أفعال أحد زعماء اليسار التونسي المنفعلة اكتشفت أن الإخوة اليساريين في تونس يصدقون أن مجلس النواب الذي حولته حركة النهضة وأنصارها من الأحزاب الأخرى إلى سيرك غلب التهريج فيه على تشريع القوانين هو عنوان الديمقراطية وأن رفع الحصانة عن أعضاء مجلس النواب من أجل تقديم الفاسدين منهم إلى القضاء هو جريمة في حق الديمقراطية وأن قيام الرئيس بواجباته الدستورية استجابة لنداء الشعب هو خرق للدستور.

ما الذي ترغب فيه قوى اليسار وهي تدافع عن التيارات الرجعية التي أغرقت البلد عبر عشر سنوات في بحر من الظلام؟

لقد مُنيت تلك القوى بالفشل الذريع حين استبعدها الشعب عن مجلس النواب. فهي في حقيقة أمرها لا وجود لها في الحياة السياسية. السبب الأساس في ذلك كما كنا نتوهم يكمن في أن حركة النهضة قد صفت رموز اليسار في وقت مبكر من عمر الثورة. ذلك يمكن أن يكون واحدا من الأسباب غير أن السبب الرئيس إنما يكمن في أن الشعب لا يثق بأشخاص متلونين، نظريا يقفون مع التقدم غير أنهم عمليا يقفون مع القوى الرجعية التي ذبحتهم.

اليسار التونسي في دفاعه عن الظلاميين والفاسدين في تونس لا يقل سوءا عن الشيوعيين في العراق الذين يُصنفون باعتبارهم يساريين. قوى رجعية تتبختر بأزيائها التقدمية وهي ما ورثته من ماض، تنبغي إعادة النظر فيه.

العشرات من السنين واليساريون يكذبون علينا بتقدميتهم التي اتضح أنها مجرد غطاء زخرفي لرجعية متأصلة.